الخنساء

شاعرة العرب

هي تماضر بيت عمرو بن الحارث بن الشديد، من قبيلة بني سليم، وقد عُرفت واشتهرت بـ"الخنساء" لأن "أرنبة" أنفها كانت مرتفعة، ولُقّبت بهذا اللقب الذي عرفها به الناس.

نشأت الخنساء في ديار بني سليم، في بوادي شبه الجزيرة العربية، حيث تعتمد أكثر القبائل على تربية الإبل والمواشي، لذا كانت تنقلاتهم كثيرة طلباً للعشب والمرعى.

وحياة البادية تختلف عن حياة المدن.

فهنا يصفو وجه السماء، وتزدان الروابي بالخضرة حيناً، لكن الأرض سرعان ما تقسو على أهلها، فيجدون أنفسهم وسط الجفاف القاسي والجدب المدقع المرير.

هذه الطبيعة المتغيرة هي التي أرهفت مشاعر سكان البوادي، فتميز الأعراب عن غيرهم: بطبيعة شاعرية مرهفة، أو خشونة وشجاعة واستهانة بالخطر.

وفي هذه الأجواء الملهمة: ترعرعت الشاعرة، واستقت موهبتها، فما كادت تشب، حتى ظهرت بوادر نبوغها وعبقريتها في أبيات تقولها في المناسبات، لا تزيد عن بيتين أو ثلاثة، فاشتهرت بين قومها: كشاعرة سليمة المنطق، مستوية البيان.

وإذا كان المؤرخون عجزوا أن يحددوا تاريخ ميلاد الخنساء على وجه الدقة، إلا أن موهبتها فعلت ذلك.

فإن تاريخ تماضر بدأ مع ذيوع صيتها كشاعرة.

واتفقت الآراء على أنها ولدت في حوالي منتصف القرن الأول قبل الإسلام.

إلى هذه الدرجة كان للشعر والشعراء مركز مرموق لدى العرب.

ولكن من ذا الذي كان يتوقع: أن هذه الفتاة الرقيقة الهادئة، يتحتل يوماً ما مكان الصدارة في قائمة شعراء العرب؟

كانت حياتها تسير على وتيرة وادعة، لا يشوبها إلا الهواجس التي تعتريها كلما خرج أبوها أو أخواها للقتال في بعض الغزوات، لكن هذه الهواجس سرعان ما كانت تتبدل بفرحة اللقاء، حين يعودوا غانمين ظافرين من ساحة المعركة، إلى أن حدثت الواقعة التي زادت من شهرتها وكشفت عن معدنها، فظلت حديث القبيلة لفترة طويلة.

ذلك أن سيد بني جشم، وفارسها المظفر، خرج يوماً يحف به جمع من رجال قبيلته وفرسانها قاصدين مكة، وطبعاً، ما كان لعربي أن يسأل من يكون السيد؟ فليس بين العرب من يجهل "دريد بن الصمة" الفارس الشجاع، والشاعر المرموق، والقائد الداهية، وقد شاءت الظروف أن يقرر هذا الفارس الاستراحة قليلاً من عناء السفر في مكان قريب من ديار بني سليم، فلما ارتاح الركب امتطى دريد فرسه متجولاً في الأنحاء، حيث وقع بصره على مشهد ملك فؤاده، رأى أمامه فتاة مليحة مرتدية ثوباً مهلهلاً، يكشف عن مفاتنها أكثر مما يغطيها، منهمكة في معالجة أحد البعير من الجرب بطلائه بالقطران.

فراح يراقبها من بعيد، وهي لاهية عنه، حتى فرغت من عملها ورجعت إلى ديارها وهو يتبعها، كي يعرف ابنة من هي.

كانت قد أسرته بمفاتنها وحسنها وقوامها الممشوق، فشغف بها دون أن تدري.

وفي الحال، توجه دريد إلى أبيها يطلب يدها، فقال له: مرحباً بك أبا مرة، إنك الكريم الذي لا يُطعن في حسبه، والسيد الذي لا يُرد عن حاجته، ولكن لهذه المرأة من نفسها ما ليس لغيرها.. سأذكرك لها وأعرف ردها.

انصرف دريد، ودخل الأب على ابنته وقال لها:

ـ يا خنساء.. أتاك فارس هوازن وسيد بني جشم، دريد بن الصمة، يخطبك، وهو الغني عن التعريف، فما قولك؟!

لكن الخنساء فاجأت والدها برفض دريد.

وقالت له موضحة سبب الرفض: اتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح، وناكحة شيخ بني خشم؟!

وعندما عاد دريد يستطلع ردّها، صدمه رفضها له، فقال أبو ها له: لعلها توافق فيما بعد.

فلم ييأس دريد، وعاد الكرَّة، فازداد نفورها منه، حتى إذا تيقن من استعصامها ورفضها، راح يهجوها بقصائده.

ولم تمض إلا أيام، حتى شاعت قصة دريد وتماضر، وأصبحت حديث مكة والعرب، وقد نقمت هوازن على بني سليم، فقد كانت تعتز بسيدها وشاعرها الذي كان أشبه ببطل أسطوري في فروسيته وشجاعته، فأنكرت أن ترفضه فتاة من العرب، وهو السيد ذو المكانة.

وحين بدأ دريد يهجو الخنساء بشعره، سألتها إحدى صديقاتها: لماذا لا تردي على هجائه لك وأنت الشاعرة القديرة؟

فأجابت الخنساء: لا أريد أن أزيد من محنته، فأعذبه مرتين، مرة برفضي له وأخرى بهجائه.

تزوجت الخنساء بعد ذلك واحداً من قبيلتها، اسمه رواحة بن عبد العزى، أنجبت منه ابنها أبا شجرة لكن الحياة بينهما صارت مستحيلة، بعد أن أدمن لعب القمار، حيث كان ينفق كل ماله في اللعب، فضاقت عليها عيشتها، حتى اضطرت أن تمد يدها إلى أخيها صخر، تطلب منه النقود، لكن حتى هذه النقود التي أخذتها من أخيها: سرعان ما ضاعت هي الأخرى بنفس الطريقة، ورغم هذا الوضع المؤلم، وحالة اللا استقرار التي كانت الخنساء تعيش فيها مع هذا الزوج المقامر، إلا أنها تحملت ورفضت التسرع في الانفصال إشفاقاً على ولدها.

عادت الخنساء إلى أخيها تشكو حالها، وتطلب منه المساعدة، فقسم أخوها صخر ماله شطرين، أعطاها الجزء الأكبر واحتفظ لنفسه بالباقي.

فلما رجعت إلى زوجها بالنقود، وامتلأت بها يداه: هاجت شهوته إلى المقامرة، فانطلق إليها ولم تمض أيام قليلة، حتى كان قد أضاع النقود كلها.

وهكذا وجدت الخنساء نفسها تدور في حلقة مفرغة، وليس هناك مخرج.

حينئذٍ قامت الخمساء فعزلت زوجها وطلقت نفسها، وعادت إلى بيت أبيها، وهي ما تزال فتيّةً تفور دماؤها بعنفوان الشباب، لكنها لم

تمكث طويلاً، فسرعان ما تزوجت رجلاً آخر من أبنـاء عمومتـها أيضاً، هو مرداس بن أبي عامر السلمي، الذي كان يلقب بـ"الفيض" لسخائه وكرمه، وولدت الخنساء منه أربعة بنين، هم العباس وجـزم ومعاوية وهبيرة، وبنتاً هي عمرة بنت مرداس، لقد ظفر مرداس من الخنساء بما لم يظفر به أحد سوى أخويها، فلقد جاءت عليه بمرثيـة تشيد فيها بحسن شمائله وجميل صفاته، فلقد كان مرداس في رأيـها خير الناس، فجاءت القصيدة من تروع الخنساء بفقد أخويها، وإلا ما كانت لتقول شطراً واحداً، فلقد أقسمت بعد وفاة أخويـها: ألا تقـول الشعر إلا رثاءً لهما.

ولقد كانت مأساة مقتل أخويها، معاوية الذي قُتـل فـي إحـدى المعارك، ثم من بعده صخر الذي خرج يطلب ثار أخيه، فـأصيب بطعنة قاتلة ظل يعاني منها حتى مات بعد فترة، ومعايشـتها هـذه الأحداث الأليمة سبباً في تغيير مجرى حياتها، وتفجير طاقات الشعر الكامنة في أعماقها، فانطلقت ترثي أخويها بشـعر يُذهـب العقـول ويفيض الدموع، وكأنها تريد أن يبكي كل البشر معها على أخويـها، فتفجرت كلماتها رثاء يفطر القلب ألماً وحزناً، خلدت حبـها لـهما أشعاراً لا تمحى من ذاكرة التاريخ.

ولا يسعنا إلا لأن نتعجب من مقدار هذا الحب الأخوي النادر.

فإن الخنساء ظلت تبكي معاوية وصخر، وتقول فيهما الشعر حتى آخر أيامها.

والغريب أنها لما استشهد أولادها الأربعة في معركة القادسية، وكانت قد أسلمت هي وقومها، لم ترث أحداً منهم ببيت واحد، ملتزمة بقسمها ألا ترثي سوى أخويها الحبيبين، فانطلقت محلقة في سماء الشعر تذهل الأسماع، وتخاطب الوجدان، فعلا نجمها، وسطع، وذاع صيتها في البلاد، وأصبح الزائرون يفدون عليها من كل مكان، يسألونها ويشافهونها، ويعايشون محنتها فيتأسون معها، وصارت الركبان بمراثيها حتى اشتهرت في البلاد.

تقدير النبي للخنساء

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحب أن يستمع من الخنساء نفسها، فكان يطلب إليها أن تنشده، وتقول له بعض مراثيها، فكان حين يستمع لها: يغدق الثناء عليها.

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وفد عليه "بنو طيء" مسلمين، قال له عدي بن حاتم الطائي:

ـ يا رسول الله، إن فينا أشعر الناس، وأسخى الناس، وأفرس الناس.

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: سمِّهم "أي اذكر أسماءهم".

فقال عدي: أما أشعر الناس فهو "امرؤ القيس"، وأما أسخى الناس فهو "حاتم بن سعدة"، وأما أفرس الناس فهو "عمرو بن معد يكرب".

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس كما قلت يا عدي، فأما أشعر الناس فـ"الخنساء بيت عمرو"، وأما أسخى الناس فـ"محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم"، وأما أفرس الناس فهو "علي بن أبي طالب".

قيل لجرير ــ الشاعر العظيم ــ من أشعر الناس؟ فقال: أنا، لولا الخنساء.

فقيل له: لم فضّلتك؟

فقال لقولها: أن الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان، ولكن يفسد الناس.

الجديدان: هما الليل والنهار.

وكان من عادة العرب أن يجتمع شعراؤها في سوق عكاظ يتبارون في فنون الشعر والخطابة، وهناك كان ينصب للنابغة الذبياني ــ أمير الشعراء العرب ــ قبة حراء، حيث يجمع أعظم شعراء العرب، فمن يحكم الذبياني بإجادته وتفوقه، تُكتب قصيدته على الحرير، وتُعلق فوق أستار الكعبة. من أجل ذلك فإن لأصحاب المعلقات مكانة رفيعة ومنزلة سامية بين جميع الشعراء، ذلك لأن

معلقاتهم فازت بأنها من أجمل الشعر وأحكمه، فقد كانت العرب تقدس البلاغة تقديساً يصل إلى حد العبادة، فأوصلهم ذلك إلى مراتب الكمال في التوسع اللغوي، حتى أصبح قول الشعر طبيعة تجري على ألسنتهم وينطق به كبيرهم وصغيرهم، وكانت الخنساء تحضر هذا السوق وتلتقي بالشعراء، تسمع منهم ويسمعون منها، وفي يوم تقدمت إلى المسابقة ليحكم النابغة في شعرها، فألقت إحدى قصائدها، فاستحسنها السامعون وحكم لها النابغة بأن قال: والله لولا أن سبقك الأعشى للمجلس والتحكيم، لقلت أنك أشعر الجن والإنس، وقد ظل حكم النابغة لها يضفي هالة من المجد عليها ـ فيض من إجلال وتكريم.

وفي واقعة أخرى قامت بينها وبين حسان بن ثابت في سوق عكاظ مناقشة مثيرة، وقد تأثر الحاضرون، وقام حسان يقول: "لم أر والله امرأة أشعر منك"، فقالت له: "ألا تريد أن تقول إنني أشعر الرجال أيضاً"، فأجابها بغرور: كلا أنا أشعر منك، ألم تسمعي قولي:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خـلاً وأكرم بنا إبنا

فنظرت إليه الخنساء بازدراء، وقالت له:

ـ إنك لعاجز في هذا الشعر، ولقد أخطأت في ثمانية مواضع منه.

فسألها عن مواضع الخطأ، فأجابته برزانة ووقار:

ـ قلت "جفنات" والجفنات جمع قلة، وكان الأجدر أن تقول "الجفنان"، وقلت "الغر" ولا يقال الغر إلا لبياض الجبهة، ولو أنك قلت "البيض" لكان المعنى أتمَّ، وإنك تقول "يلمع" واللمعان يفيد النور الضعيف، وكان الأجدر بك أن تقول "يشرقن"، وقلت "بالضحى" مع أن وقت الضحى لا يأتي من الضيوف إلا النزر اليسير، ولو قلت "مساء" لكان المعنى أتمَّ، وقلت "أسياف" يجمع القلة ولو أنك قلت "سيوف" لكان دليلاً الكثرة، وقلت "يقطرن" فدللت بذلك على قلة عدد القتلى، ولو قلت "يجزين" لكان أبلغ، ثم أنك تقول "دماً" ولو قلت دماء لكان أتم، ثم أنك تفتخر بالأخلاف منكم، ولا تفتخر بمن سلف.

فخجل حسان، وخرج من المجلس غاضباً.

بقي أن نذكر أنه تقريباً لا يوجد كتاب من كتب الأدب العربي القديمة، يخلو من ذكر الخنساء أو الاستشهاد بشيء من شعرها، فاليزيدي مثلاً يختار مرثية لها في "أماليه"، وكذلك فعل البحتري، و"المبرد" يؤثرها بالذكر في حديث عن أفضل المراثي، وقدامة بن جعفر يشهد بشعرها في المختار من أبيات الرثاء، كذلك لم ينسها

أبو العلاء في رسالة الغفران، أما أبو الفرج الأصفهاني فقد احتفل بها كشاعرة العرب.

ولم تلق الخنساء هذا الاهتمام من علماء العرب فحسب، بل إن المستشرقين أيضاً كان لهم اهتمام خاص بالخنساء، فها هو كرناكوف يكتب عنها في دائرة المعارف الإسلامية ترجمة وافية، كما ألف المستشرق جبريللي كتاباً أسماه "عصر الشاعرة الخنساء وحياتها" طبع بالإيطالية في فلورنسا عام ١٩٩٨. وفي عام ١٩٠٤ نشر رودو كاناكيس كتاباً عن "الخنساء ومراثيها" طبع باللغة الألمانية. أما الأب كوبييه، فقد نشر ديوانها بعد ترجمته إلى الفرنسية في بيروت عام ١٨٨٩، كما ترجمت قصائدها في عدة دواوين أوروبية، وأيضاً كتب عنها بروكمان في "تاريخ الأدب العربي".

أما في العصر الحديث، فإن عدد الكتب التي تتكلم عن الخنساء أو تنشر قصائدها: يفوق الحصر.

وقد عاشت الخنساء لكي ترى الناس يرددون شعرها، وبعد أن ماتت أصبحت مراثيها على لسان العرب في كل مكان.